جهود العلماء في تنقيط وتشكيل الحرف العربي

أ.م.د. بان حميد فرحان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير المرسلين وعلى آله وصحبه وبعد:

بعد انتشار الإسلام ، واختلاط العرب بالأعاجم ، ودخول كثير منهم الإسلام ، بدأت عوامل الفساد تدب إلى اللغة العربية وحدث اللحن في الألسنة ، وتسرب إلى ألسنة الناشئة وعامة الناس ، فانتبه له رجال الدولة وشمر العلماء عن ساعد الجد يبغون الصلاح ويهدفون الى الإصلاح وقد جعلوا القرآن نصب أعينهم وغايتهم ، صيانته وحفظه ، خشية أن يتطرق إليه تصحيف أو تحريف.

وإذ نقرأ قول الله تعالى:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر:٩].

نجد أن من مظاهر حفظ الله تعالى لكتابه أن هيأ له حفظة ضابطين وكتبة متقنين في كل عصر وفي كل مصر.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما تنزل عليه الآية يأمر أحد كتابه فيكتبها في موضع كذا من سورة كذا. ولم يكن في ذلك الوقت نقط ولا شكل للحروف، إلى أن جاء الخليفة الراشد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وفي ذلك الوقت انتشر الإسلام وكثر تابعوه من العجم وغيرهم وتفشى اللحن في لغة العرب، وكثر الخطأ في القرآن الكريم، وكان أبو الأسود الدؤلي من أوائل الذين تنبهوا إلى خطورة اللحن الذي أخذ يتفشى في كثير من الألسنة فقام بوضع النقط للضبط فكان يضع النقطة أمام الحرف علامة على الضمة، والنقطة فوقه علامة على الفتحة، وإذا كانت تحته فهي للكسرة، وكل ذلك لضبط للقرآن.

نقط المصحف وشكله :

مرت عملية تنقيط المصحف في ثلاث مراحل وقبل بيانها لا بد من بيان أن للنقط معنيان:-

الأول : نقط الإعجام وهو نقط الحروف ذاتها ، للتفريق بين المشتبه منها في الرسم كنقط الباء نقطة تحت الحرف ، ونقط التاء باثنتين من فوق ، وهذا النوع هو الذي ظل حتى يومنا هذا مستعملا في النقط سواء أكان في المصحف أم في غيره ، وهو وضع نصر بن عاصم ، ويحيى بن يَعْمُر العدواني.

الثاني : نقط الإعراب وهو نقط الحروف للتفريق بين حركاتها المختلفة في اللفظ مثل جعل الفتحة نقطة فوق الحرف ، والكسرة نقطة تحت الحرف ، والضمة نقطة بين يدي الحرف ، وسمي فيما بعد بالشكل ، لأنه يزيل ما في الكلام من إبهام وأشكال ، وكان يسمى بادئ الأمر بالنقط لأنه كان يرسم نقطا مدورة لا تفترق عن نقط الإعجام من حيث الصورة .

وبقي الحال على هذا المنوال إلى أن فتح الله للخليل بن احمد ، فأوجد بدلا منه الحركات (الفتحة ، الضمة ، الكسرة،) التي نعتمدها في كتاباتنا إلى يومنا هذا ، فأكمل بذلك المسيرة التي بدأها كل من (أبو الأسود) ، ونصر بن عاصم ، ويحي بن يعمر .

مراحل نقط المصحف وشكله ، أسبابه ودواعيه :

مرت عملية نقط المصحف وشكله في مراحل ثلاث :-

المرحلة الأولى : نقط الإعراب :

يروى أن زياد بن أبيه والي البصرة طلب من أبي الأسود الذي كان معلما لأولاده أن يضع قواعد تعصم اللغة من الفساد ، فأبى بادئ الأمر ، وامتنع أن يلبي طلبه فأمر رجلا أن يقعد في طريق أبي الأسود فلما قاربه رفع صوته بالقراءة قاصدا إسماع أبي الأسود، وقال (إن الله برئ من المشركين ورسوله) بكسر اللام في رسوله ، فقال أبو الأسود ما ظننت أن أمر الناس آل إلى هذا الأمر ، فرجع إلى زياد فقال : أفعل ما أمر به الأمير.

المرحلة الثانية : وهي نقط الإعجام :

تتفق معظم المصادر على أن تنقيط المصاحف للحروف المتشابهة وإزالة عجمتها كان يطلب من الحجاج ابن يوسف الثقفي عامل عبد الملك بن مروان وقد أطلق على هذه العملية الإصلاحية اسم الإعجام .جاء في لسان العرب : (حروف المعجم : أ ، ب، ت .. سميت بذلك من التعجيم وهو إزالة العجمة بالنقط ، والعجم :- النقط بالسواد ، بخلاف نقط الإعراب أي الشكل كان بالمداد الأحمر ، مثل التاء عليها نقطتان ، يقال أعجمت الحرف والتعجيم مثله ، ولا يقال عجمت ، قال ابن جني : أعجمت الكتاب أزلت استعجامه ، وكتاب معجم إذا أعجمه كاتبه بالنقط ، فالإعجام إذن هو التنقيط للحروف المتشابهة في شكلها فالعين مهملة ومن أجل التفريق بينها وبين (الغين) تعجم الثانية بنقطة فوقها

وخلاصة القول : إن أبا الأسود هو أول من نقط المصاحف ، وهذا ما ترويه معظم المصادر كالنجوم الزاهرة وصبح الأعشى وكان الغرض من تنقيطه هو ضبط الشكل فقط ، وأما تنقيط يحي بن يعمر ونصر بن عاصم ، فكان هدفه الإعجام ، وتمييز الحروف المتشابهة بالصورة ، فللباء نقطة من أسفل ، وللتاء نقطتان من فوقها ، وللثاء ثلاث فوقها ، وأعجمت الجيم والخاء وأهملت الحاء .

وقد علل بعض العلماء سبب اختيار عدد النقاط والكلمات ومكان موضعها سواء أكانت في الأعلى أم في الأسفل ، ويختلف أهل المغرب عن أهل المشرق في إعجام الفاء والقاف ، فهم ينقطون الفاء بنقطة من أسفلها والقاف بنقطة واحدة في أعلاها .

المرحلة الثالثة : على الرغم من الخطوات الرائدة التي مر ذكرها ، والتي كان مفادها سلامة الحرف العربي وصيانة اللسان من الزلل ، بقي الحرف يعاني من تعثرات ما زالت ترافقه، وما زال هناك تصحيف وتحريف ، ولبس ، وأشكال ، ويعود السبب إلى أن الشكل – أي حركة الحرف – والإعجام – أي تنقيط الحروف المتشابهة – قائمتان على أساس النقطة ، فالإعجام كان باللون الأسود ، والشكل الذي يعتمد

النقطة صورة له يجري باللون الأحمر، وقد لا يجد الكاتب حين يكتب لونين من المداد ، فيضطر إلى أن يستخدم لونا واحدا فقط وعند ذلك تتراكم النقاط ، ويلتبس الأمر على القارئ ، ويقع عندئذ الإشكال.

وحتى لو توافرت الألوان الكافية من الحبر ، فهي لا تحل الإشكال ، وذلك لكثرة النقاط وتراكمها فضلا عن مشكلة أخرى هي :- عدم ضبط حركة بنية الكلمة ، والوقوف على اللفظ السليم كما سمع عن العرب فهناك الكثير من الكلمات إذا اختلفت حركة بنيتها تغير معناها ، وفي العربية الكثير من الكلمات المثلثة مثل كلمة (بر ، بر ، بر) بفتح الباء ، وضمها ، وكسرها ، وكل حركة منها تغير معناها وقد تتغير الحركة في الكلمة الواحدة، ولا يقود هذا التغيير إلى اختلاف في المعنى ، بل يبقى كما هو وهنا تكمن الفوضى ، وتقع الحيرة في الوقوف على اللفظ الصحيح.

فالإصلاح الأول الذي قام أبو الأسود ، والإصلاح الثاني الذي قام به كل من يحي بن يعمر ، ونصر بن عاصم ، وقيل الحسن البصري ، ظل قاصرا ، والحرف العربي بقي تحت رحمة النساخ يصيبه ما يصيبهم من فوضى تراكم النقاط ، وصعوبة القراءة حتى ، هيأ الله له الخليل بن أحمد الفراهيدي فأوجد الحركات الفتحة ،الضمة ، الكسرة ، التنوين) التي نعتمدها في كتابتنا إلى يومنا هذا فأكمل المسيرة الإصلاحية التي بدأها أبو الأسود الدؤلي ، وبالإصلاح الثالث الذي قام به الخليل بن سلم الحرف العربي من اللبس ، والغموض، والتحريف ، والتصحيف قراءة وكتابة ، وتحوشي ، تراكم النقاط واختلاف المداد فكان مجموع ما وضعه الخليل ثماني علامات هي : الفتحة ، والضمة ، والكسرة ، والسكون، والشدة ، والمدة ، والصلة ، والهمزة ، وهي التي نستعملها إلى يومنا هذا .